تدريس اللغة العربية في الجامعة الجزائرية
بين الواقع والمأمول

د. عزاز حسنية
جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس

يقول أحد الباحثين: "من لم ينشأ على أن يحبّ لغة قومه، استخف بتراث أمّته، واستهان بخصائص أمته، وإنّ الغيرة على اللغة واجبة، مثل الغيرة على العرض"، فعلا فكما يغار الإنسان على عرضه يجب أن يغار على لغته.

تسعى هذه الورقة البحثية إلى تناول أمر هذا التدريس، باعتباره عاملا حاسما في تكوين أجيال متمثلة معارفه باللغة العربية، من جهة، ومن جهة أخرى اعتبار التدريس باللغة العربية في الجامعة أحد المعايير الضرورية لقياس أهبة المجتمع لمواجهة مشكلاته اللغوية الذي يدخل ضمن التخطيط اللغوي(وهو أحد فروع اللسانيات الاجتماعية).

إن تجربة الجزائر في تعميم اللغة العربية لم يقتصر على التعليم الجامعي فقط، وإنما أرادت بالتعميم استعمال هذه اللغة في مختلف مجالات الحياة، وكان ذلك بصدور قانون وطني سنة 1991م عن طريق البرلمان، الذي ينص على التعميم التام باستعمال العربية، ويعد أول قانون بعد مناقشات برلمانية وسياسية على مستوى الأحزاب والمجتمع المدني الذي يعيش في ظل الثنائية اللغوية بل الازدواجية اللغوية[1]. وتبعا لهذا القانون أنشئ "المجلس الأعلى للغة العربية" التابع لرئاسة الجمهورية ليسهر على تنفيذ هذا القانون، ولكن المتربصين بالتعريب والمسخرين لحماية لغة الأعداء، والواقعين تحت سيطرة اللوبي الفرانكفوني عملوا جاهدين بكل ما أوتوا من شر (وليس من قوة) على تجميد هذا القانون، وكان لهم ما أرادوا، لكن بعد حوالي أربع سنوات أقدم رئيس الدولة الجديد على رفع التجميد عن قانون استعمال اللغة العربية بالرغم من معارضة المعارضين الذين نجحوا إلى حد بعيد في جعل اللغة الفرنسية هي لغة النقاش أمام الشعب في أجهزة ووسائل الإعلام، وأصبحت اللغة الفرنسية متداخلة مع العربية في تلك الوسائل، وبالرغم من ذلك تأسس المجلس الأعلى للغة العربية[2]، ومن بين المهام المخوّلة له:

- التنسيق بين مختلف الهيئات المشرفة على عملية تعميم استعمال اللغة العربية وترقيتها وتطويرها.

- ترقية استعمال اللغة العربية وحمايتها في الإدارات والمرافق العمومية والحرص على سلامتها.

وأضحى هذا المجلس (الذي يشبه إلى حد كبير في مهامه المجامع اللغوية بالبلدان العربية الأخرى) منارة علمية للعربية بالنشاطات التي يقوم بها، وما يساهم به في عالم النشر لصالح لغة القرآن الكريم.

وبما أن للجامعة أيضا دورا مهما في تمكين اللغة العربية من الفرد الجزائري، كما يمكن أن تسهم إسهاما خاصا في نقل العلوم إلى العربية وتطويرها، سيكون حديثي عن اللغة العربية في التعليم العالي من خلال المراحل أو المحطات التاريخية التي مرّ بها، والتي نميّزها في مرحلتين أساسيتين: المرحلة الاولى: ما قبل الاستقلال؛ أمّا الثانية، فما بعد الاستقلال.

المرحلة الأولى: تدريس اللغة العربية بالتعليم الجامعي ما قبل الاستقلال

منذ أن احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830م، وهي تسعى إلى ضمها أرضا وعرضا، ترابا ودماء، فتنتمي الجزائر بذلك إلى فرنسا انتماء فكريا ودينيا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا...، ولتحقيق مساعيها انتهجت خططا سطرتها في كافة المجالات من بينها التعليم، وانطلقت من سياسة تعليمية (ظاهرها حلو وباطنها مرّ)، فقد كتب أحدهم من ذوي النظريات الخاصة في سياسة التعليم الاستعمارية مقالا مفاده: "إن أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية في مستعمراتنا، وجعلهم أكثر ولاء، وأخلص في خدمتهم لمشاريعنا، هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة وأن نتيح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا، فالمقصود إذن باختصار؛ هو أن نفتح لهم بعض المدارس، لكي تتكيّف فيها عقولهم حسب ما نريد"[3].

لقد أخذت فرنسا في تطبيق مشروعها التعليمي، والتزمت في سياستها التعليمية منذ بدايتها بأسس وقواعد من بينها "الفرنسة أو إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية، أي لغة المجتمع المستعمِر في محلّ لغة المجتمع المستعمَر، بدءا بالمصالح والإدارات وانتهاءا بالشارع والمجتمع العام"[4]، هكذا أراد المستعمر عزل الجزائري عن قوميته وهويته من خلال اجتثاث ثقافته العربية، لكن هيهات؛ لأن كفاح ونضال الشعب الجزائري لم يكن من أجل الأرض فقط، بل كان نضالا من أجل الدين واللغة والعرض والمال والولد، وظهرت حينها جمعية لها تاريخها ومكانتها، إنها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي عملت كل ما في وسعها لعدم الذوبان والانصهار في المجتمع الفرنسي؛ بالاهتمام بالعربية وتدريسها وتعميم التعليم بها،

وكان يرأسها الشيخ "عبد الحميد بن باديس"[5] (رحمه الله) الذي عرّف بالشعب الجزائري، قائلا في أبياته الشهيرة:

شعب الجزائر مسلم	وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله	أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له	رام المحال من الطلب
يا نشئ أنت رجاؤنا	وبك الصبح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها	وخض الخطوب ولا تهب

وختم الشيخ قصيدته بهذا البيت الرائع:

فإذا هلكت فصيحتي: تحيا الجزائــرُ والعرب[6]

وبدا دور هذه الجمعية واضحا، إذ أصبح للعربية حماة يدافعون عنها ضد الاستعمار الفرنسي، وأغلب قادتها درسوا وتعلموا وترعرعوا في كنف هذه الجمعية التي اعتنت أيما اعتناء بالشباب الجزائري، وأسست "معهد ابن باديس" الذي حوى تلك الفئات من الشباب المسلم، إضافة إلى تعلّمهم بحواضر المغرب العربي ومصر في جوامعها كجامع الزيتونة والقروين والأزهر، حينما حاصرت فرنسا المعهد وقامت بإغلاقه.

هذه الفئة التي أبت إلاّ أن تدرس باللغة العربية لإيمانها بأهمية هذه اللغة، فهي إحدى ثوابتنا، ورمز هويتنا، والجامعة بين أبناء أمتنا، هذه الفئة نفسها حاربت الاستعمار وشاركت مع بقية أفراد الشعب في طرده، واستشهد منهم من استشهد، ومن بقي حيّا واصل مسيرة نضاله في سبيل إحياء اللغة العربية وتمكينها في الجزائر بعد الاستقلال (أمثال البشير الإبراهيمي).

المرحلة الثانية: تدريس اللغة العربية بالتعليم الجامعي ما بعد الاستقلال

بعد انتصار الثورة الجزائرية، واستعادة السيادة الوطنية، إثر انعقاد اتفاقية إيفيان (Evian) التي أبرمت بين الحكومة الجزائرية المؤقتة والحكومة الفرنسية بتاريخ 07 مارس 1962م[7] كانت قد "نصت الحكومة على أن تضع في متناول الحكومة الجزائرية المستقلة، جميع الوسائل الضرورية التي تحتاجها في مجال تنمية التعليم، كما نصّت بالمقابل على أنّ الحكومة الجزائرية، تسمح لفرنسا بالاحتفاظ في الجزائر على مؤسسات تعليمية خاصة بالفرنسيين والأوروبيين، تشرف عليها السفارة الفرنسية بالجزائر، من خلال (المكتب الجامعي الثقافي الفرنسي) الذي ينشأ لهذا الغرض"[8]، هذا النص يؤكد على الازدواجية اللغوية الموجودة منذ هذا العهد، وهكذا انقسم التعليم في الجزائر غداة الاستقلال، إلى تعليم جزائري

وطني تابع للدولة الجزائرية، وتعليم فرنسي أجنبي يشرف عليه المكتب الجامعي الثقافي الفرنسي بالسفارة الفرنسية.

وقد شكلت الجزائر المستقلة لجانا وطنية لتحديد الأهداف والمرامي والأبعاد من التعليم وفق استراتيجية معينة، وكانت النتائج المنبثقة عن اللجنة الخاصة بالتعليم في اجتماعها الأول في 15 ديسمبر 1962م عبارة عن مبادئ رسمت السياسة التعليمية في الجزائر المستقلة:

- ديمقراطية التعليم؛ أي تعميمه على جميع أبناء الشعب.
- التعريب.
- التكوين العلمي والتكنولوجي.
- الجزأرة.[9]

لقد منحت ديمقراطية التعليم فرصة التعليم لكامل أبناء الشعب الجزائري، ومازالت سياسة الدولة في ديمقراطية التعليم ومجانيته سائدة، أمّا عن الوضع التعليمي في التعليم العالي، فكان موروثا عن الاستعمار كحلّ ملازم للوضع السائد، أي استمراريته باللغة الفرنسية، لكن تفكير الجزائر من تمكين اللغة العربية في التعليم العالي، جعلها تتخذ قرارا في سنة 1971م بتعريب العلوم الإنسانية كالفلسفة والتاريخ[10] تعريبا كاملا، غير أن العلوم الأخرى بقيت باللغة الفرنسية، بل استحوذت هذه اللغة على بقية التخصصات والعلوم الأخرى، فالعشرية ما بين الاستقلال إلى غاية سنة 1971م هي مرحلة انتقالية بالنسبة للتعليم العالي، وسياسة التعريب بدأت تأخذ طريقها انطلاقا من إصدار المرسوم المؤرخ في 1971/08/25م المتضمن قرار تعريب مؤسسات التعليم العالي[11]، وأصبحت كليات الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية تدرّس تخصصاتها باللغة العربية، بينما كليات الطب والهندسة والإعلام الآلي والتخصصات العلمية الدقيقة، والبيولوجية، والحيوية، والطبيعية، تدرّس باللغة الفرنسية إلى غاية يومنا هذا.

إذن هذا هو واقع التدريس باللغة العربية في الجامعة الجزائرية، لكن ما نأمله هو تغلب الإرادة السياسية لتعميم استعمال اللغة العربية؛ لأن تعليم العلوم بالعربية حتما سيتولّد عنه التأليف والبحث والترجمة بالعربية، وخاصة أن الطلبة في الجزائر في التعليم الثانوي يدرسون العلوم بالعربية، وحين انتقالهم إلى الجامعة يصطدمون بشبح اللغة الفرنسية التي سيدرسون بها شتى المواد العلمية، وهم لا يتقنونها، ونحن نتساءل في هذا المقام:

لماذا نجحت إسرائيل في إحياء لغتها العبرية الميتة؟ بينما نتعثر نحن في إحلال لغتنا الحيّة المقام الذي كان لها في العصور الوسطى كلغة علم وحضارة وثقافة؟

والمطلوب الآن من وزارات التعليم العالي ما يلي:

- رفع التحدي من جديد، والانتقال من سياسة الحبر على الورق في المراسيم إلى سياسة التنفيذ.
- تبنّي التجارب العربية الناجحة من خلال نقل العلوم التي عُرِّبت عنها، بدل الهجرة إلى اللغات الأخرى من خلال التعليم بلغاتها.[12]
- التزام أعضاء الهيئة التدريسية استخدام العربية السليمة في التعليم.
- تعميم استعمال العربية في كافة المراحل التعليمية، وفي كل الاختصاصات.
- تفعيل وحدات البحث اللغوية بفتح مشاريع حول من يقدّم أحسن عمل في قضايا استعمال العربية.
- تدريس مادة اللسانيات التطبيقية في مختلف الاختصاصات.
- إنشاء وحدات بحث تختص بالترجمة في كلّ جامعة عربية.
- ضرورة تدريس بعض المواد العلمية ذات التكنولوجية العالية باللغات الأجنبية.
- الإكثار من ضروب النشاط اللغوي بالفصحى.[13]
- العناية باللسانيات الحاسوبية بحثا وتطبيقا وتدريسا بما يساعد على استخدام اللغة العربية لدخول مجتمع المعرفة وتحقيق التنمية البشرية.
- العناية بالترجمة العلمية والتكنولوجية تماشيا مع تدريس العلوم والتكنولوجيا باللغة العربية.[14]

أقول في ختام الحديث عن الهدف العام، وهو تعميم اللغة العربية في التعليم الجامعي، لابدّ من تضافر الجهود بين صنّاع القرار ومنفذيه في الواقع لكي نصل بلغتنا إلى مصاف اللغات الرائدة في العالم، ولربّما يرى البعض أن العربية عاجزة عن توصيل العلوم الحديثة، وينعتونها بالصعبة، فهذه الصعوبة وهذا العجز، لا يعود للغة العربية في ذاتها، وإنما في القائمين عليها (مختصون وسياسيون)، فتعليم العلوم بغير العربية ليس هو الخلاص من التخلّف، بل تجسيد لثنائية الضعف العلمي والضعف اللغوي.

هذا عن التدريس باللغة العربية في الجامعة الجزائرية، فماذا عن تدريس اللغة العربية بالجامعة الجزائرية؟

إن النظام الذي كان سائدا في الجامعة الجزائرية هو النظام الكلاسيكي؛ أي التحصّل على شهادة الليسانس خلال أربع سنوات ثم الماجستير بعد النجاح في المسابقة، ثم الدكتوراه، بينما النظام السائد حاليا هو نظام L.M.D وهو هيكل للتعليم العالي مستورد من البلدان الأنجلوساكسونية، وهذا الهيكل معمول به تدريجيا في بلادنا منذ سبتمبر 2004م، وهي تحضير الطالب لثلاث شهادات ليسانس، ماستر، دكتوراه، تكون الشهادة الأولى بعد ثلاث سنوات، والانتقال مباشرة إلى الماستر دون مسابقة، ثم تسجيل في الدكتوراه بعد اجراء المسابقة، وهذا النظام ليس من صنع جزائري؛ أي لم تتدخل إطارات الفكر والتربية وخبراء المناهج فيه، ولكن هو تقليد لما هو سائد في أمريكا ثم أوروبا، وبالتحديد في فرنسا.

والحديث عن النظام التعليمي السائد حاليا في الجامعة الجزائرية ههنا، إنما هو إفادة لنا في طرح إشكالية واقع تدريس اللغة العربية بأقسام اللغة العربية وآدابها (لأن هذا النظام له دوره في الواقع الذي سنتحدث عنه).

أوّلا: طرح الإشكالية

سنعرّف بعبارة "تدريس اللغة العربية" ويراد بها معان؛ تتردد بين الدلالة الموسعة والمعنى المخصوص بقيد الاستعمال.

وكان لنا حديث فيما سبق عن السياق العام، أي توظيف اللغة العربية واستعمالها في العلوم الإنسانية أو العلوم الطبيعية، أو العلوم التقنية، كما تستعمل عبارة "تدريس اللغة العربية" في سياق آخر يدنيه من المعنى العام للثقافة العربية بناءا على أن اللغة –أي لغة– هي مرآة تنعكس فيها، ولو بطريق غير مباشر، أحوال مستعمليها وأوضاعهم الثقافية والحضارية، فيصير حينئذ درس اللغة العربية معناه: درس أحوال الثقافة والحضارة العربيتين. وفي هذا السياق، تنتعش شروط المقابلة بين اللغة العربية وثقافتها من جهة، واللغات الأجنبية على اختلاف ثقافتها وتعددها الحضاري من جهة ثانية.[15]

أمّا تدريس اللغة العربية المتوخّى في هذه المساهمة، فمعناه بسيط، وخاص، وينحصر مقصودنا به في تدريس مواد[16] اللغة العربية في أقسام اللغة العربية وآدابها.

ثانيا: الدراسة الاستطلاعية

للتعريف بواقع تدريس اللغة العربية في الجامعة الجزائرية، لابدّ من دراسة استطلاعية، وقد تمّ إجراء ذلك بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب واللغات والفنون بجامعة الجيلالي ليابس بسيدي بلعباس، وربما هذه الدراسة تبين واقع تدريس اللغة العربية في هذا القسم الذي لا يختلف كثيرا عن أقسام اللغة العربية وآدابها بجامعات أخرى؛ وهي في

حقيقة الأمر ليست بدراسة استطلاعية بحتة لها عيناتها وأدواتها ومعطياتها، وإنما هو نقل لتجربة ميدانية شخصية.

نحن ندرّس مواد اللغة العربية في هذا النظام المعروف بـ L.M.D ومنه فتحت مشاريع لتدريس اللغة العربية، كمشروع "تحليل الخطاب وعلم النص"، ومشروع اللسانيات، فتكون المواد كالآتي:

هناك الوحدة الأساسية تضم المواد الآتية: علم الأصوات، نحو عربي، صرف عربي، مدخل إلى الأدب العربي، مدخل إلى الأدب العالمي، النقد الأدبي ودراسة النصوص.

أمّا الوحدة المنهجية، فتضم: بلاغة وعلوم القرآن، ودراسات فكرية، وفي الوحدة الاستكشافية، نجد تقنيات البحث والإعلام الآلي، والوحدة العرضية (العمودية) تضم اللغتين الفرنسية والإنجليزية.

هذا مثال عن المواد المدرسة خلال السنة أولى جامعي في قسم اللغة العربية وآدابها، وهذا النظام يعتمد على السداسيات، والمواد تختلف من سداسي لآخر، فإذا درسنا علم الأصوات في السداسي الأول، ندرس علم وظائف الأصوات في السداسي الثاني، وهكذا. ولهذا النظام علاقة بواقع تدريس علوم العربية، فما لاحظناه ما يلي:

- كثرة المحاضرات المقدمة، وتراكم المقاييس دون فهم محتواها.
- شيوع اللغة العامية على لغة الإلقاء عند المعلمين، وهذا ما يربك المتعلّم، ويجعل قاعدته اللغوية ضعيفة وهشة في المحاضرة والتطبيق، وحتى في الحرم الجامعي.
- التقويم غير عادل، فهو اجترار للقواعد في الامتحان فقط، وتغليب ما هو نظري دون التطبيق.
- تردد الأستاذ على أكثر من تخصص؛ أي من مادة في السداسي الأول إلى مادة أخرى في السداسي الثاني، وهذا ما يغلّب السطحية في البحث، دون التعمق والتجديد.

إضافة إلى ملاحظات أخرى، فمن خلال تجربتي في التدريس ما بين النظامين الكلاسيكي، ول.م.د (L.M.D)، فإن مواد اللغة العربية عرفت تفصيلا وتنوعا، فبدل من تدريس الأدب الجاهلي في السنة الأولى (طيلة السنة) في النظام الكلاسيكي، فإنّ هذه المادة تدرس في نظام "ل.م.د" على الشكل الآتي: النقد الجاهلي، الشعر الجاهلي في محيطه التاريخي، النثر الجاهلي، قضايا الشعر الجاهلي في النقد، نصوص جاهلية، الشعر الجاهلي، فهذه فروع كثيرة متنوعة متخصصة، يستطيع الأستاذ أن يتعمق فيها، غير أنّ واقع تدريسها لا يعكس هذا التنوع والتخصص، وبقيت طريقة التدريس نفسها، والتغيير ورد في تسمية النظام فقط.

إن تدريس مواد اللغة العربية أو مقاييسها في نظام "ل.م.د"، لا يختلف عنه في النظام الكلاسيكي، ومنه فإن العديد من القضايا تطرح حول هذا الواقع، من بينها: قضية تصنيف المواد، فما أسس تصنيف مواد اللغة العربية، وما مرجعيته، ونسقه ؟

هل هذا التصنيف للمواد وليد تصنيف قديم؟ أم هو وليد دراسات نقدية في ميدان المناهج والبرامج وتقويمها ؟ هل تصنيف هذه المواد حديث في تسمياته، قديم في مضامينه؟ أسئلة عديدة طرحناها حول تصنيف المواد الممثلة لتدريس اللغة العربية في أقسام اللغة العربية، ومن الواضح في تدريسنا لمواد اللغة العربية،(وأقدم لكم مثالا لتوضيح الفكرة لا للحصر كالأفعال، ومدخل إلى علم الصرف، ومدخل إلى علم البلاغة، والحروف، وعلم البيان، وإعراب الجمل)[17].

- إن التصنيف يزاوج بين القديم والحديث، أي بين العلوم اللغوية التراثية كالبلاغة والنحو والصرف، والأدب القديم كالأدب الجاهلي والإسلامي والأموي، وبين العلوم اللغوية الحديثة كالصوتيات واللسانيات والسيميائية والأدب المعاصر والنقد المعاصر.
- هذا الجمع بين المعارف اللغوية القديمة والمعارف اللغوية الحديثة يمدّ الطالب بمعلومات متنوعة، كما تتيح له تكوينا متوازنا.

ومن المفروض أن هذا التصنيف يهيئ لنا طالبا متنوع المعارف، سائرا وفق خط أفقي متسلسل الأحداث من القديم إلى المعاصر، غير أنّ توقعات هذا التصنيف الذي في ظاهره جمع بين لغويات التراث ولغويات العصر، إنّما باعد بينهما، بدل التقريب بينهما، وربّما هذا عامل جعل تدريس اللغة العربية مضطرب الملامح، لا هو بالقديم المتين ولا بالجديد الفعال، وليس العيب أن اهتمامنا كان قويّا بالتراث، لكن كيف أخذنا هاته العلوم؟ لقد أفرغناها من المحتوى والجوهر، واكتفينا بالشكل والتسمية فقط، والشيء نفسه بالنسبة للغويات المعاصرة.

كما لاحظنا أنّ ضعف تدريس مواد اللغة العربية، ليس مردّه فقط القصور في التصنيف؛ وإنّما هنالك غموض في أهداف تدريس هذه العلوم، إضافة إلى ضبابية في طرق التدريس، وعدم ايضاح أهداف التدريس وطرقه لعلوم العربية، وسأعرض قول ابن خلدون الذي نبّه فيه إلى تباين الطرق التي كان يتبعها القدامى في تدريس النحو مثلا حيث يقول: "وطرق التعليم فيها مختلفة؛ فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين، والكوفيون والبصريون والبغداديون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك"[18]، ومؤدى كلام ابن خلدون أن الطرق التي نتبعها اليوم في تدريس النحو كان حقها أن تكون أشدّ تميّزا واختلافا عن طرق القدامى.

فاللغة هي الملكة الصناعية عند ابن خلدون إذ قال في مقدمته: "اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذٍ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة، والملكات لا تحصل إلاّ بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة ثم يتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة".[19]

وتصبح اللغة ملكة تامة يكتسبها المرء من حسن الاستماع و القراءة لأحسن التراكيب وتذوق أجود المعاني، و بتكرارها تحصل الفصاحة لتكون زادا يستقيم به لسانه وفي هذا يقول يحيى بن خالد لولده:" اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وحدّثوا بأحسن ما تحفظون، وخذوا من كلِّ شيءٍ طرفًا، فإنه من جهل شيئًا عاداه "[20]

فهذه هي اللغة الفصحى أسلوب القرآن و الحديث و وصايا الخلفاء و البلغاء تعيش بين أضفاف الكتب و حبيسة سطور الكراريس يمليها الملقن و يحفظها المتعلّم حفظا آليا[21]، فأين مواعظها و أين هذا الموروث؟ يوشك أن يكون مقصورا على أصحاب الثقافة العربية الخالصة دون المتعلمين لعلوم مختلفة و معارف تتنوع وتغتني بتنوع حضارة المجتمع ومجالاتها، والتي يستلزم التعبير بها يغني الموضوع و عمقه، و التركيز على سعة الأفكار و تنوعها دون أن يتوجه الاهتمام كلّه إلى عوامل الصحة التقليدية.[22]

هذه لمحة موجزة عن واقع تدريس مواد اللغة العربية، لكن ما نأمله هو اتخاذ الإجراءات العلمية الملحة والضرورية، والتي نذكر منها:

- إعادة النظر في وضع مواد اللغة العربية، وتصنيفها، وتجديد توزيعها، بما يسمح لها بالتكامل دون التجزئة، والنسقية دون التبعثر، والاهتمام بالمواد التي تعاني العربية فيها الآن خصاصة كبيرة.

- الاهتمام ببعض المواد الأساسية كعلم المصطلح والتعليمية؛ لأنّ المعرفة تنبني على التحكّم في مفهوم المصطلح، وإجادة تعليم المادة.

- العمل على تحقيق الانسجام بين التأسيس النظري والاجراء التطبيقي، والربط بين المواد التعليمية المختلفة والثقافة التي نشأت فيها المفاهيم الأولية.

- اهتمام الباحث في اللغة العربية بإنجازات العلوم الاجتماعية(علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم التربية)، وبخاصة ما تعلق بالبحوث الميدانية.

- وضع برامج مسطّرة الأهداف، واضحة المعالم في تدريس مواد اللغة العربية، فإذا أخذنا على سبيل المثال: السيميائية والبنيوية، يجب على واضع البرنامج تحديد المفاهيم، والتعريف بنظريات هاتين المادتين، والعمل على تطبيق قواعدهما في المتون الأدبية؛ لأن الطالب مغرور بالمصطلحات المعاصرة، ويردّد لك معلومات كثيرة عنها، وهو غير واع بمفاهيم أساسية مثل: العلامة والإشارة والرمز والأيقونة....واللسان والكلام واللغة والمعيار والاستعمال والآنية والزمانية والتوليد والتفريع ... فوضع البرامج في اللغة والأدب العربي هو عمل المختصين في الديداكتيك، أولئك الذين يملكون الأدوات المنهجية.

ويبقى أملنا كله ليس فقط، تغيير في البرنامج أو المنهاج أو الوسائل أو الطرق أو الإجراءات أو حتى الإمكانات المادية، ولكن أملنا كبير في تغيير الذهنيات والعقول، كيف ذلك؟

إن العملية التعليمية (مثل ما هو معلوم) قائمة على أربعة أركان أساسية هي: المعلّم والمتعلّم والمادة التعليمية ووسائل التعليم، وفي نظري - ونقلا عن تجربة شخصية في التدريس- أن المعلّم هو لبّ هذه العملية وأساسها، وهو مركز دوران هذه الدائرة التعليمية سواء في الاتجاه الصحيح الصائب أم الاتجاه المعاكس؛ لأن الطرق التربوية ما هي إلا وسائل يوصل المعلّم من خلالها معلومات إلى المتعلّم، والمادة التعليمية هي أيضا من اختيار المعلّم، فالمعلّم الناجح يساهم في نجاح المادة التعليمية، ولكي يكون ناجحا:

- لابدّ أن يكون متمكّنا من الطرق التربوية التي تعينه على تقديم دروسه والتعريف بمواده؛

- لابدّ أن يكون متمكّنا من درسه؛ أي لديه رصيد معرفي في التخصص الذي يدرّسه، وإطلاع دائم على مستجدات ذلك العلم؛

- وبالرغم من تمكنه لابدّ أن يحضّر لدرسه بإعداد مذكرة يرسم فيها خطة عرضه لهذا الدرس، أي منهجية عرض الدرس خلال ساعة من الزمن تستطيع أن تفي بالغرض المطلوب، أي ايصال الرسالة بكل دقة وأمانة، وهكذا يخرج الطالب من المحاضرة، وهو قد فهم درسه واستوعبه ويستطيع أن يذكرك بالدرس مرة قادمة دون حفظ؛

- تحكّم المعلم في المهارات اللغوية التي يستهدفها في عملية التدريس، وهي لا تخرج عن أربع مهارات أتى على ذكرها علماء اللغة، وهي:

- مهارة الاستماع: أي فهم اللغة المسموعة سواء في القسم أو في المحيط الخارجي.
- مهارة القراءة: وهي مهارة تكسب الطالب القدرة على الفهم خاصة فهم النصوص.
- مهارة التحدّث: أي الشجاعة الأدبية، الفصاحة فالبلاغة، وطلاقة اللسان، والسلاسة، ويساهم في ذلك الرصيد اللغوي الذي يزيد من القدرة الإبداعية.
- مهارة الكتابة: وهي جمع للمهارات السابقة، يحتاج إليها الطالب حين الكتابة.

خاتمة:

إن أمر اللغة العربية وتنميتها لا يتعلق بمستوى التعليم الجامعي في الجزائر فقط، وإنما لابدّ من النهوض بالتعليم في الأمة العربية قاطبة، فنرفع من مستوى لغتنا بإصلاح أحوالها ومعالجة أوضاعها، ولذلك وجب ما يلي:

- إرادة عربية جدية تنفّذ ما يتّخذ من قرارات بشأن تنمية اللغة العربية.
- وضع خطط عملية جادة تحسن استثمار الأموال في سبيل خدمة هذه اللغة.
- توحيد الجهود العربية للتمكين للغة العربية فعلا في كل مجالات الحياة.
- وضع برامج ومناهج وطرق علمية معاصرة موحدة لتدريس اللغة العربية في جميع الجامعات العربية، بالنظر إلى الظروف المحيطة بالدول العربية.

وخلاصة القول: إنّ الوضع الذي آلت إليه حال اللغة العربية وهو وضع لا تحسد عليه، إنها في مراحل الضّعف والتبعية، وما حال اللغة العربية إلا مرآة لحال الأمة التي هي أيضا في مراحل الضعف السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي، والتكنولوجي والعلمي، وهذه الحال يصدق فيها قول ابن خلدون: "إنّ المغلوب مولع باتّباع الغالب في كل أموره"، وهذا ما ينطبق على الفرد العربي من المحيط إلى الخليج؛ لأنّه اليوم أصبح يعيش استيلابا فكريّا ولغويّا، لا يهتم بلغته ولا يستعملها بالشكل الذي يسمح لها بالانتساب حتى تتعايش مع مختلف اللغات، وتضمن لنفسها البقاء في حلبة الصّراع اللغوي.

ويبقى ما تطرقت إليه في هذه المقالة مجرّد آراء شخصية، لرّبما يغلب عليها طابع الاندفاع والانفعال نابع عن شعور بالمسؤولية نتيجة تجربتنا في التدريس، ونابع من غيرتنا على هذه الأمة؛ لأنّ العلم "هو، وحده، الإمام المتبع في الحياة؛ في الأقوال والأفعال والاعتقادات " على حد تعبير شيخنا عبد الحميد بن باديس (رحمه الله).

<u>الهوامش:</u>

1- الثنائية اللغوية: هو مصطلح يطلق على تحدث أحد الشعوب بأكثر من لهجة (كالعامية والفصحى) في آن واحد؛ أما الازدواجية اللغوية، فهي أن يتحدث شعب ما

أكثر من لغة، وقد اختلف الباحثون بشأن تصنيف وضع العامية والفصحى في البلدان العربية كثنائية لغوية أو ازدواجية لغوية.

2- المرسوم الرئاسي رقم 226/98 المؤرخ في 17 ربيع الأول عام 1419هـ الموافق لـ 11 يوليو 1998م.

3- أحمد طالب الإبراهيمي، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية، ترجمة حنفي بن عيسى، د.ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ت،ص16.

4- مصطفى زايد، التنمية الاجتماعية ونظام التعليم الرسمي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، د.ت، ص104.

5- الشيخ عبد الحميد بن باديس علم من أعلام الجزائر، بل العالم العربي، له تاريخ حافل بالعلم ونشر تعاليم الدين الإسلامي واللغة العربية في الجزائر إبّان الفترة الاستعمارية، من مواليد مدينة قسنطينة يوم الأربعاء 10 ربيع الثاني 1308 الموافق لـ 4 / 12/ 1889م، والمتوفى مساء الثلاثاء 8 ربيع الأول سنة 1359هـ الموافق لـ 16 / 4 / 1940م ونحن نحتفل بـ 16 أبريل كل سنة وسمّيناه بيوم العلم.

6- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس ج4،(التربية والتعليم، الخطب، الرحلات) ، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط:1 1406هـ- 1985م، ص119.

7- يأتي بعد هذا التاريخ: 19 مارس، ويعدّ هذا التاريخ يوم انتصار الجزائر على فرنسا، ونحن نحتفل به كل سنة ، وسميناه بعيد النصر، أمّا 05 جويلية، فهو عيد الاستقلال ونحتفل به أيضا كل سنة.

8- محمد عابد الجابري، السياسات التعليمية في أقطار المغرب العربي، منتدى الفكر العربي، عمان، ط2، 1990م، ص117.

9- ينظر: محمد عابد الجابري، السياسات التعليمية في أقطار المغرب العربي ، ص18.

10- ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية، تر: محمد يحياتن ، دار الحكمة، الجزائر، د.ط ، 2007م، ص137.

11- ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية، ، ص137.

12- ينظر: ياسين بوراس، اللغة العربية في التعليم العالي بعد خمسين سنة من الاستقلال، طبعة خاصة بـ (اللغة العربية خلال الخمسين سنة 2012/1962)، مجلة مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، منشورات المخبر، الجزائر، سنة 2012م، ص292.

13- ينظر: صالح بلعيد، يزع بالحاكم ما لا يزع بالعالم، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 2010م، ص70.

14- ينظر: محمد حرّاث، التخطيط للغة العربية في ظلّ الواقع اللغوي في الجزائر، طبعة خاصة بـ(الأمم الحية أمم قويّة بلغاتها)، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة تيزي وزو، سنة 2012، ص260.

15- ينظر: الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، دار طوبقال للنشر، المغرب، 1985م، ص194.

16- أقصد بالمواد المقاييس التي تدرس في أقسام اللغة العربية، أي علوم العربية القديمة والحديثة كالبلاغة والنحو واللسانيات والسيميائية وغيرها...

17- ينظر: ملحق هذا البحث، وهو يتعلق بمواد اللغة العربية للسنة الأولى ليسانس من نظام ل.م.د (ليسانس، ماستر، دكتوراه).

18- ابن خلدون، المقدمة، ج3، دار الكتب العلمية، لبنان، ط10، سنة 1993م، ص1265.

19- ابن خلدون، المصدر نفسه، 3/1278- 1279.

20- الشيخ محمد بن ناصر العجمي، آل القاسمي ونبوغهم في العلم والتحصيل، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1، 1420هـ- 1999م.

21- جميلة عبيد، دور المنظومة التربوية في تهذيب اللغة الممارسة عند المتعلمين، ملتقى التخطيط اللغوي، تيزي وزو، الجزائر، ديسمبر 2012.

22- ينظر: فاروق شوشة، لغتنا الجميلة و مشكلات المعاصرة، دار المعارف، القاهرة، د.ط، د.ت، ص 8.